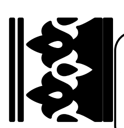

القرآن في السودان : منذ فجر الإسلام حتى اليوم


أ. د. أحمد محمد اسماعيل البيلي (*)

لقد وصل الإسلام والقرآن بلاد النوبة شمالي سودان وادي النيل قبل أيام ولاية الصحابي (عبد الله بن سعد بن أبي السرح) (ت 59 هـ) . وفي أثناء ولايته ، دارت بينه وبين ملك بلاد النوبة (قَلَيْدَرُث) معارك ، حالت بين دخول الجيش الإسلامي بلاد النوبة ، ولكن أبرمت أتفاقية بين الدولتين سنة (31 هـ) وعرفت في المصادر بأنها معاهدة هدنة . (1) وقد اقتضى تطبيق هذه الاتفاقية من والى مصر وملك بلاد النوبة . أن يكون دخول المسلمين بلاد

(*) أ.د. أحمد محمّد اسماعيل البيلي عضو مجمع الفقه الإسلامي .

(1) وعندما تشير إليها المراجع الإسلامية تذكر كلمة (بقط) والقاف والطاء حرفان مقتطعان من الكلمة اللاتينية (PACTUM) ومعناها المعاهدة وقد انتقل هذا الجزء اللغوي اللاتيني إلى بعض اللغات الأوربية . وتارة يكتفون بـ (PACT) وتارة يستعملون (agreement) . وقد يتوهم بعض الكاتبين أن " بقط " هذه عربية اشتقاقاً ودلالة والصواب غير ذلك ، وهو أن أصل الكلمة لاتيني ، ودخل في اللغتين الأغريقية والرومانية ، ثم بعض اللغات الأوربية . ومما ينبغي الانتباه إليه ، أن كلمة (بقط) توجد في اللغة العربية وفي بعض اللهجات العربية ، بفتح القاف أيضاً . فتنطق الكلمة (بَقط) والحرف الأول في اللهجتين (باء = B) مع أن الحرف الأول في الكلمة اللاتينية (P = ب) وهو صوت لا تعرفه أي قبيلة عربية . و (بقط) في اللغة العربية لا يدل على الأتفاق والتعاهد . لا بين فردين ولا بين دولتين . وله دلالات كثيرة . ومنها التفرق والتشتت ، وعليه قول الشاعر :

(رأيت تميماً قد أضاعوا أمورَها طوائفُ) فَهُمْ بَقَطٌ في الأرض فرثُ

النوبة مصرحاً به ، أياً كانت صفة الداخل . ولما شع أمر الأتفاقية بين الناس ، بدأ المسلمون في مصر ، أفراداً وجماعات يتقاطرون على بلاد النوبة ، ومنهم التجار والحرفيون والفقهاء وحفاظ القرآن ، وبطبيعة الحال أن تكون مع بعض الفقهاء وحفاظ القرآن مصاحف مخطوطة . ولما كثرت أعداد المسلمين في بلاد النوبة ، واختلطوا بالتزاوج ، وبنوا عدداً من المساجد ، ألحقوا بهذه المساجد مدارس القرآن (الخَلَوات) . ودخول الدعوة الإسلامية في بلاد النوبة ، ورؤية المسلمين للمصاحف المخطوطة وانتشار الدعاة للإسلام في هذه البلاد . كل هذا بدأ أثناء خلافة عثمان بن عفان ﷺ .

وظل المسلمون يتكاثرون عن طريق القادمين الجدد ، وعن طرق التزاوج بين الذكور العرب والإناث المسيحيات النوبيات . ومضى شأن المسلمين والإسلام وانتشاره في هذه البلاد في العهد الأموي والعباسي على النحو الذي كان عليه أثناء خلافة عثمان . فإنك لا تمر اليوم (1422هـ) بأي قرية أو مدينة بالولايات الشمالية ، إلا وجدت مسجداً ، وتجد بجانبه (خلوة) لتعليم القرآن ، وصار أهل النوبة كافة ، لا تجد بينهم نصرانياً واحداً في يومنا هذا . وقد أطلف شيوخ القرآن كلمة (خلوة) على مدرسة القرآن : لأن شيخ الخلوة يختلي فيها بتلاميذه الذين يعلمهم القرآن ، كتابة وقراءة وحفظاً ، وهو في أثناء ذلك يختلي بهم عمن سواهم .

والعرب الذين دخلوا في فترات مختلفة ، كانوا أول أمرهم قبائل متفرقة . ولما اتحدوا مع المسلمين من غير العرب . أقاموا مملكة إسلامية ، وجعلوا عاصمتها مدينة (سنار) وأصبح السودانيون يعرفون يومئذٍ بالسناريين . [2]

وقد قضى محمد علي باشا ، والي مصر في وقته ، على هذه المملكة في الربع الأول من القرن التاسع عشر . وصار السودان تابعاً لمصر سياسياً وإدارياً . ومصر يومئذٍ كانت تابع لتركيا ، فقد كانت (أستنبول) عاصمة الخلافة الإسلامية . وكان من المشاهد في عهد مملكة سنّار ، أن يكون بجانب كل جامع خلوة لتعليم القرآن الكريم . وصار نسخ المصاحف مهنة يحترفها الخطاطون الحافظون للقرآن . وخلال ضم السودان لمصر أثناء ولاية محمد علي باشا ، أدخلت الحكومة نظام المدارس الحديثة فأنشأت الحكومة مدارس أولية في بعض المدن ثم مدارس وسطى وكان من جراء ذلك أن ضعف الإقبال على خلوات القرآن .

وفي عهد الحكومة الإسلامية المهدية ، (1885 – 1898م) عاد الإهتمام بالقرآن وخلواته ومعلميه ، إلى درجة إعفاء شيخ الخلوة من الإلتحاق بالجيش . وفي الفترة التي كان السودان تحت " الحكم الثنائي " (1898 – 1955م) أهمل شأن القرآن ومعلميه وتلاميذه واستطاع الإنجليز أن يحولوا بعض

---

[2] وفي الأزهر الشريف رواق يعرف برواق (السنّاريين) وفي المدينة المنورة وحدة أوقاف باسم مملكة (سنار) .

خلوات القرآن إلى مدارس صغرى ، يكتفى فيها بحفظ الأجزاء الثلاثة الأخيرة ، وشيء من الحساب والخط ، وبعض أبواب الفقه الإسلامي ، وأقتضت سياسة بريطانيا أن تحارب اللغة العربية ، والإسلام والقرآن ، وتحول بين الإسلام وانتشاره وسط أبناء الجنوب الوثنيين . ومن عناصر هذه السياسة أن حاولوا تجفيف المنابع التي يأتي منها القرآن وحافظوه وهي خلوات القرآن ، والجوامع التي تدرس فيها علوم الإسلام . ومن صور هذه المحاربة ، أن يكون التعيين في الدوائر الحكومية قاصراً على خريجي المدارس الوسطى ، ثم الثانوية فيما بعد . أما من كان من حفظة القرآن ، أو من خريجي الأزهر والمعاهد الدينية السودانية فلا مجال له في وظائف الحكومة . ومن كان ذا حظ من هؤلاء يجد مجالاً في المحاكم الشرعية ، أو إماماً للصلاة في جامع ، أو مدرساً للغة العربية والدين الإسلامي في المدارس الأهلية . ثم بدا للبريطانيين ، بعد عقدين من الإحتلال ، أن العناية بخلوات القرآن مما يحبب فيهم الشعب السوداني ، وأن الخلوات مدارس لمحو الأمية . عندئذٍ شرعوا في الاهتمام بالخلوات وخلعوا عليها اسماً جديداً " الخلوات النظامية " وهي الخلوات التي يقتصر منهجها على تحفيظ بعض أجزاء من القرآن ، مع شيء من الأحكام الفقهية وأحكام العقائد ، ومباديء الحساب ، والخط ، وشيء من علمي التاريخ والجغرافيا ، وكرة القدم في بعضها .

وبدئ في تطبيق هذا النظام سنة 1917م . وعيّن الشيخ بابكر بدري رحمة الله (ت 1954م) مفتشاً لخلوات القرآن . وظل بعد تكليفه بهذه المهمة يذرع السودان ، طولاً وعرضاً ، ويرفع تقاريره لمصلحة المعارف (وزارة التربية فيما بعد) بأسماء الخلوات التي زارها ومشائخها ، ومستوياتهم ، ويضمن تقريره ما يوصي به نحو كل خلوة ، من إعانة بعض مالياً ، وحرمان بعض . وقد احتوى كتابه (تاريخ حياتي) في الجزء الثاني ، إشارات واضحة لما قام به نحو الخلوات النظامية في المديريات الشمالية .

وإلى جانب ما سمي " بالخلوات النظامية " فقد سار بعض الخلوات على منهجها التقليدي المعروف ، حفظ القرآن كله ، وبعض المتون المتعلقة بالقراءات والتجويد ، ولم يوافق أصحابها والمشرفون عليها ، أن يضاف إلى حفظ القرآن شيء آخر ، ولم يتعرض المحتلون لهذا النوع من الخلوات ، ولم يقدموا لمشائخها معونات مالية ولا عينية . ورعاها الشعب نفسه ، بأساليب مختلفة ، من إقليم لأقليم ولهذا لم ينعدم حفظة القرآن الكريم من السودان طوال فترة الإحتلال (1898-1955م) .

وبعد استقلال السودان عام (1956م) تجدد الإهتمام بخلوات القرآن ومعلميها وطلابها على النحو الآتي بيانه . وبدأ هذا الاهتمام شعبياً وحكومياً . أما شعبياً ، فقد سارع بعض ذوي الغيرة على الدين الإسلامي إلى إنشاء

خلوات جديدة لتحفيظ القرآن . كما أنشأ بعض العلماء معاهد دينية وسطى ، على غرار المعاهد الدينية الوسطى التي كانت وزارة الشؤون الدينية قد أنشأتها . أما الاهتمام الرسمي الحكومي بالقرآن وشؤونه ، فقد بدأ سنة 1965م عندما تولى وزارة التعليم السيد بدوي مصطفى الشيخ رحمه الله (ت : 1998/3/17م) .

فقد قرر مجلس الوزراء بتوجيه من هذا الوزير ، القرارات الثلاثة الآتي ذكرها :

1. جعل الدين مادة أساسية في امتحان الشهادة الثانوية ، والامتحان فيه اجباري .
2. قيام (جامعة أم درمان الإسلامية) وقد كانت في الطور السابق " كلية الدراسات العربية والإسلامية ". أما الطور الأول فقد كان يمثله " المعهد العلمي " بأقسامه الثلاثة : الإبتدائي ، والثانوي ، والعالي . وقد كان " المعهد العالي " قد أنشيء سنة 1912م – على نمط الدراسة في " الأزهر الشريف " .
3. قيام مؤسسة لرعاية شؤون القرآن الكريم ، وقد أصدر مجلس الوزراء هذه القرارات في (1965/7/7م) وقد وضع لهذه المؤسسة نظام تسير وفقه في

شؤونها الإدارية والمالية . وشكل لها مجلس أمناء ، يرأسه السيد بدوي مصطفى رحمه الله .

إختار المجلس لإدارة هذه المؤسسة أحد رجال وزارة التربية والتعليم ووافقت الوزارة على أن تنتدب لإدارة هذه المؤسسة كاتب هذا البحث ، وظل مديراً لها (من 1966 إلى 1974) ثم ذهب إلى دولة الأمارات العربية المتحدة ، مستشاراً علمياً بدائرة القضاء الشرعي . ولما أنشئت " جامعة القرآن الكريم " سنة 1990- طلب إليه أن يتولى تدريس مادة " توجيه قراءات القرآن " ولم يزل بها . وبعد قيام هذه المؤسسة ، عينت الإدارة لكل ولاية مفتشاً لخلوات القرآن (مدارس تحفيظ القرآن) يزورها ويرفع للإدارة تقارير يضمنها توصياته التي يراها . وقد وضعت الخلوات يومئذٍ في درجات ثلاث : أولى وثانية وثالثة . وتقرر المعونة المالية الحكومية وفق الدرجة ، وكانت المعونات سنوية . أنشأت المؤسسة خمسة معاهد وسطى ، ليلتحق بها حفظة القرآن ، ومقرراتها في جميع المواد هي المواد التي كانت مقررة على طلبة المدارس الوسطى . ما عدا المواد الخاصة باللغة العربية والدين الإسلامي والتجويد ، فطلاب هذه المعاهد يدرسونها بالكتب المقررة في المعاهد الدينية الوسطى . ويضاف إليها علم التجويد نظرياً وتطبيقياً . ثم أنشأت المؤسسة معهداً ثانوياً بالخرطوم ، ليلتحق به الخريجون من تلك المعاهد . سمي " معهد شروني لعلوم القرآن " باسم الشخص الذي كان قد بناه بماله الخاص . ومدة الدراسة به خمسة أعوام ، ويمنح

خريجه (دبلوم القراءات) وقد صار هذا الدبلوم من الشهادات التي تؤهل حامله للإلتحاق بكلية القرآن الكريم بجامعة القرآن الكريم . كما أنشأت المؤسسة مركزين لتدريب حفظة القرآن الكريم على التجويد ، ليلتحق به مشائخ الخلوات الذين لم يكونوا قد درسوا التجويد . ويصحح الرواية التي حفظ القرآن بها لأنه تبين للمفتشين ، أن بعض الشيوخ يخلط بين رواية وأخرى والروايات القرآنية المنتشرة في السودان هي :

1. رواية الدوري ، لقراءة أبي عمر بن العلاء .
2. ورواية ورش عن نافع .
3. ورواية حفص عن عاصم .

ورأت المؤسسة كذلك قيام مهرجان سنوي للمسابقة في حفظ القرآن الكريم . ورؤي يومئذٍ (1974م) أن تقام مسابقات محلية في الولايات . وأن تبعث كل ولاية الأول والثاني والثالث ، للمنافسة على مستوى الجمهورية في الخرطوم . وتنتهي التصفية النهائية في الخرطوم إلى العشرة الأوائل ولهم جوائز مالية . ثم يعودون إلى ولاياتهم .

ومما زاد الناس في السودان إقبالاً على حفظ القرآن الكريم ، أن رئيس الجمهورية الفريق (عمر حسن أحمد البشير) كان قد أصدر قراراً جمهورياً ، بأن حافظ القرآن إذا عين في أحد مرافق الدولة ، يعين في بداية الكادر الجامعي ، ولو لم يكن معه إلا حفظ القرآن ، وقد طبق هذا القرار الآن (جامعة القرآن

الكريم والعلوم الإسلامية) ولما استولت ثورة الإنقاذ على الحكم في (1989/6/30م) قررت قيام جامعة باسم (جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية) ووضع للجامعة قانون . وضمت الجامعة بعد قيامها " المعهد العلمي العالي " الذي كان قائماً . ورؤي أن تكون الكليات على النحو الآتي :

1. كلية القرآن الكريم .
2. كلية الشريعة .
3. كلية اللغة العربية .
4. كلية الدعوة والإعلام .
5. كلية التربية .
6. كلية الدراسات العليا .

وللجامعة مركز خاص بالبنات يضم جميع الكليات الخمس المتقدم ذكرها . ومقرراتها مماثلة تماماً للمقررات في كليات البنين . والالتحاق بإحدى كليات الجامعة ، شرطه الحصول على الشهادة الثانوية السودانية ، أو ما يعادلها ، وحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، ما عدا كلية القرآن ، فالمقدار المطلوب حفظه من القرآن عشرة أجزاء . ولجامعة القرآن دليل عام . ولكل كلية دليل خاص . وللجامعة فروع في بعض الولايات ، الشمالية منها والجنوبية . وكانت الدولة

قد وضعت سنة (1973م) قانوناً لمراقبة المصاحف المطبوعة وأجزائها . كما أنشأت لجنة عليا لمراقبة المصاحف وفقاً لمواد ذلك القانون .

لعلي بما ذكرته في هذه الصفحات ، قد جعلت القاريء الكريم ، يقف بصورة عامة واضحة المعالم ، بينة القسمات ، عن مسار القرآن الكريم في سودان وادي النيل . منذ أن بدأ العرب المسلمون يفدون إليه زرافات ووحادانا ، ومنذ أن بدأوا ينشئون خلوات القرآن (مدارس تحفيظه) ، حتى أقاموا جامعة قاصرة على القرآن والعلوم الإسلامية . وهي اليوم (1423هـ- 2002م) تقوم شامخة على الضفة اليسى لنهر النيل بمدينة أم درمان . تضم في كلياتها اليوم نحو (17.500) من طلبة وطالبات . ومنهم من جاء من الأقطار العربية ومنهم من جاء من أوروبا ومنهم من جاء من الأقطار الأفريقية . بعضهم جاء للحصول على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) وبعضهم جاء للحصول على " الماجستير " أو " الدكتوراة " .